توجيه الفرد والامة

بقلم : الاستاذ هادي العصامي

— ١ —

تمهيد

يجب أن يسلك الانسان طريقاً مستقيمة غير منتهية الى غاية تصير النفس في حيرة ، وتجرها الى التفكير العميق ، وأن لا يكون كالانسان الاول حينما كانت فكرته محدودة في اسباب الحياة الضرورية التي تحتمها غريزة حب الذات فالبقاء ، فيقتع برد الاذى عن نفسه ، ودفع الأخطار عنها ، فبعد أن حطم عنه قانون الحياة الصارم الذي استغل كل ما يملك من قوة ومجهود من تفكيره في أساطير نسجها الوهم ، واتقن حبكها الخيال حوله ، وانقذ نفسه من تسيطر الضرورات القاسية التي جعلته دائب الفكر في ايجاد مأمن ينقذه من شرها ، وصار عبداً لما يهوى ويفتكر في السعادة والراحة المنبعثة عن عناء العمل في حياة هادئة يمازجها شيء من الابداع في فنون الانتاج ، والترف حتى في الفكر ، يجب عليه أن يجعل الفضيلة غاية الغايات ، لأنها تؤدي به الى اعظم مباغ من السعادة .

حدث هذا الانقلاب الخطير ، العظيم الأثر في شتى نواحي

في الليل بقوله بعد البيت الذي نحن بشرحه :

تطاول حتى قلت ليس بمنقض

وليس الذي يرعى النجوم بآيب

وصدر ارابح الليل عازب همه

تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فجعل الهم يأوي الى قلبه بالليل كالنعم العازبة يريحها الرعاة مع الليل الى اماكنها والقول في هذا اكثر من ان يستقص .

ثم ان بيت النابغة هذا يعده البديعيون من شواهد حسن الابتداء ويفضلونه على مطلع معلقة امرىء القيس :

قفي نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لعدم المناسبة بين شطريه من حيث كثرت المعاني وجمال اللفظ وبهذا قدم ابن المعتز بيت النابغة عليه لان النابغة راعى في بيته التناسب فله الاقدمية في حسن المطلع والذي اراه في هذا البيت هو الصورة البدوية البعيدة عن رقة الحضارة والا فما معنى تصدير قصيدة غرض الشاعر منها مدح ملك ببيت يشتمل على الهم التاصب ومقاساة الآمه في الليل الطويل أوليس هذا مما يخالف اشتراط المتأخرين في براعة الاستهلال من ان يكون الكلام دالا على ما يناسبه حال المتكلم مع المحافظة على الذوق السليم وقد أشار ابن المقفع الى هذا المعنى على ما نقل عنه ابو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين في كلام له في تفسير البلاغة حيث قال : ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما ان خير ابيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت الجزء الذي يجب ان يشتمل عليه عجزه قال الجاحظ كأنه يقول فرق بين صدر خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة الصلح حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير في كلام لا يدل على معناك ويشير الى مغزاك .

صادق الملائكة

الحياة فمنح الانسان حرية واسعة النطاق ، ترافقه الى اخر لحظة من حياته ، وأخذ بعضه يساهم البعض الآخر في تعديل قانون الحياة ، وساعدته نواميس الحياة الفعالة للقضاء على مالا يتفق وحرية الفرد ، كي يعتز الفرد بحريته ، ووسع افق حياته ، وخلق له جواً صاحياً من غيوم المخاوف التي رسمتها له الواهمة في اساطيرها ، فتجلى له عالم لم يحلم به من ذي قبل .

وشعر من نفسه أنه واقع تحت سلطة فعالة ، لها سطوة جبارة ، غير أنها لا تقوده إلا لما يوجب له السعادة — هو عمل الخير الاعلى للانسانية — كما شعر أن لنفسه خلجات ، ولحسه انفعالات ، وفي صدره مشاعر ، غير أن ذلك مكبوت لا يستطيع أن ينفس عنه ، ووجد لعالمه الجديد صلة بروحه . يتفق وخلجات نفسه والانفعالات والاحاسيس المكبوتة ووجد أمامه متعساً لان ينفس عن كل ذلك ، فخطا خطوات في عالم التفكير ، فرأى نفسه هو المحور الذي يدور عليه دولاب الحياة ، فاذا فقد كان الوجود عدماً ، والحياة فناء .

وقد كان حب الذات فالبقاء غريزة ذاتية في الانسان ، فطر عليها منذ أن قذفته الطبيعة على ساحل الحياة ، فشعر بها لأول مرة ، فاخذ يستخدم مواهبه ومداركه فيما يحتم له طول البقاء ، ولم تزل تنمو هذه الغريزة ، حتى تمكنت جذورها من اعماق قلبه ، فحببت له التطور والارتقاء ، فنشأ من ذلك تنازع البقاء ، وهذا هو الذي دفع بمن سمت مداركهم — النبلاء — أن يستخدموا ذوى المواهب المنحطة ، ويستعبدوهم لقضاء مآربهم ، وقد يذيقونهم ضروب العذاب ، إن لم يؤدوا واجبات العبودية ، وقد ينتهي ذلك بموت الكثير منهم ، أو بيعهم مع ابنائهم ، لاسيما اذا عجزوا عن دفع ماضرب عليهم ، أو من أجل دين لا يستطيعون على وفائه ، ولم يك ذلك خاصاً في امة دون أخرى ، غير أنه كان بصورة فادحة في اليونان والأمم الغربية .

وقد تولد من غريزة حب الذات العصبية ، فكان صالح الفرد فوق صالح مدينته ، وصالحها فوق صالح الدولة ، غير أن عصبية الفرد لشخصه كانت أوسع دائرة ، واكثر اعتداداً ، ولعل هذا التطرف في اعتداد كل فرد بذاته نتيجة لما اصاب الفرد من اذلال واضطهاد يوم كان زمام الحكم في أيدي النبلاء .

فقد كان النبلاء يرون أنفسهم ولدوا للسيادة ، والضعيف ماولد الا للعبودية ، وإن هذه السيادة حق شرعي ، خصها الله بطبقة دون أخرى ، فهي موهبة ألوهية ، لا يعتورها التغيير والتبديل ، وإن حق هذه السيادة قد ولد من القوة ، كما ولد منها واجباً ، ومن يقوم بهذا الواجب ؟ لا شك الضعيف ، فكان روح الاستسلام الراسخ الاقدام في قرارة نفس الضعيف من أهم مقومات ذلك النظام الجائر ، واعظم ميناء رست عليه سفينة اطماع النبلاء ، فكانوا يتمتعون بامتيازات كبيرة ، غير أن نفوذ هذا النظام محكوم عليه بالتلاشي ، لان سنة الطبيعة تقضي عليه بالزوال ، وكيف لا ؟ ! والعقول اخذت تتدرج في التطور والارتقاء ، فحل محل الاستسلام روح التذمر والانتقام ، مضافاً الى ذلك إن نظاماً كهذا لازمه الانقلاب الفجائي .

لكن المفكرين الذين نشؤوا تحت ظل هذا النظام ، اخذوا يغذون العقول والارواح تغذية صحيحة ، لئلا يحدث ارتباك واضطراب في الانقلاب ، فتنتقل الحال من سيء الى اسوء ،

بل ارادوا أن يميتوا نفوذ البلاء شيئاً فشيئاً ، ليستبدلوا ذلك النظام بنظام يتفق وحرية الفرد والمجتمع ، فجعلوا كل فرد يشعر أن القوة لا تلد حقاً ولا واجباً ، وأن لا واجب على الانسان غير القوى المشروعة التي تصون حقوق الفرد، كما تصون حقوق الجماعة ، وقربوا ذلك الى ادراك الافراد: بأن كل قوة تفوق القوة الاولى يجب أن تلد حقاً فوق الحق الأول ، وواجباً فوق الواجب الاول ، واذا ولد أفيل يبقى معنى للحق والواجب اللذين تلاشيا عندما ضعفت القوى التي كانت تحميهما ؟ واذا كانت الطاعة قسراً ، فما هي موضوعية الحق والواجب ؟ ، فاذا طمع قاطع طريق في دراهم انسان ، وباغته في غير مأمنه ، واشهر عليه آلة جارحة طالباً منه دراهمه ، فهو مضطر الى إعطائها الى قاطع الطريق، ولكن هل يجب عليه اعطاؤها اياه ، اذا كان باستطاعته اخفاؤها ، وذهاب القاطع عنه ؟ ، وهل الآلة الجارحة بما إنها قوة اولدت حقاً وواجباً ؟ .

وبعد هذا التقريب المبني على البرهان المنطقي ، اثبتوا ان القوة المشروعة التي تصير الضعيف في أمن حصين من غائلة القوى هي التي تلد واجباً ، يتحتم القيام به حسبما تشرع ، تلك القوة له من الأنظمة والقوانين التي تتفق والحياة الأنسانية ، وتماشي روح العصر ولما كانت طبيعة أي بلاد لها شأن في تكييف طباع الشعب، وكانت النفوس آهلة لأن ينشأ فيها حب الوطن واستحكاماته جاهزة من غريزة حب الذات فالبقاء ، ومن عصبية الفرد لشخصه فبلاده ، نشأ ذلك نشأة قوية ، لدقة شعوره بأن الانسان اذا لم يكن له وطن يعتز به ، لا يستطيع أن يبني له مجداً ، يكون له التقدم به على من عداه ، واصدق صورة الى ذلك العرب واليونان ، وقد سجل التأريخ شدة تأثر العرب بوطنهم ؛ وكثيراً ما ترى العربي يحن الى الدمن ويبكي على الاطلال والربوع ، وما ذلك الا لشدة شغفه ببلاده وحبه الى وطنه .

وأما اليونان فلم يكونوا امة واحدة تشرف عليها حكومة واحدة ، بل كانت كل مدينة حكومة مستقلة تحكم نفسها بنفسها ؛ فكان هذا التقسيم داعياً الى التنافر والمناكرة ، فولد فيهم شعور المنافسة ، وتمكن من قلوبهم حب الوطن ، فكان حب الوطن غريزة ثانية يتمشى الى جنب غريزة حب الذات غير أنها تختلف قوة وضعفاً ، فالشعب الحي تقوى فيه تلك الغريزة وتأخذ محلها السامي من قلبه ، والمنحط نوازيه في الانحطاط

وطن غرق

كان للفيضان الذي غمر مدينة البصره الفيحاء له أعظم الأثر في نفوس كافة العراقيين فقد اصيب البصريين باضرار لا تكاد تقدر ، وكلمة سعادة العين الشيخ عبد القادر باش أعيان الذي استقاها منه مندوب جريدة الزمان صور فيها الوضع والخسائر التي قدرت بعشرة ملايين دينار ، والمشاهد لابناء الريف ساعة أن يدخل البصرة تهيمن عليه حالة توصله الى تصعيد الانفاس ؛ ومن الذين تأثروا الاستاذ الخطيب السيد علي الهاشمي فأرخ الفيضان واليك التأريخ :

عم العراق وأهله طغيان ماء مندفق
والناس مما نابها باتت جميعاً في أرق
كل ينادي كان لي تأريخه (وطن غرق)

١٣٦٥ هـ